

الباب الثالث

النثر الجاهلي

- النثر الفني ، خصائصه
- خلال النضال العربي والمستشرقين في بدء ظهوره

النثر الجاهلي

النثر هو الكلام الذي لم ينظم في أوزان وقوافي و النثر العربي نوعان : نثر عادي ، و نثر فني .

فالنثر العادي هو ذلك اللون الذي يقال في لغة التخاطب اليومية بين الناس في حياتهم العادية ، وليس لهذا اللون قيمة أدبية لأن المتحدث به لا يوليه عناية بالألفاظ أو انتقاء للكلمات مما يجعله غير مثير للانتباه وغير مسترغ للأسماع .

أما النوع الثاني وهو النثر الفني فهو ذلك اللون الأدبي البعيد عن الوزن والقافية المعتمد علي حسن الصياغة وانتقاء الألفاظ وخصوبة الخيال بما يجعله مؤثراً في النفوس مثيراً للانتباه محرراً للمشاعر موقظاً للأحاسيس آسراً للأفئدة .

- وهذا النوع من النثر يتفرع إلى فرعين كبيرين هما : الخطابة والكتابة الفنية ويسميا بعض الباحثين باسم النثر الفني وهي تشمل القصص المكتوبة كما تشمل الرسائل الأدبية المجودة ، وقد تتسع فتشمل الكتابة التاريخية المنمقة^(١) .

ويشمل هذا النوع أيضاً مجموعة من الفنون التي راجت في العصر الجاهلي وهي الخطابة ، والحكم ، والأمثال ، والوصايا والمحاورات والقصص ، وسجع الكهان ، والمنافرات .

(١) الفن ومذاهبه في النثر العربي /د/شوقي ضيف ص١٢ - دار المعارف

الخطابة

وهي من ألوان النثر ، عمادها اللسان ، كما أن الكتابة عمادها القلم ، وتعرف الخطابة بأنها : فن مخاطبة الجمهور الذي يعتمد على الإقناع والاستمالة .

وقد انتشرت الخطابة وصار لها في العصر الجاهلي شأن عظيم وذلك لأنهم استخدموها في التحكيم بين الخصومات وإصلاح ذات البين وتحمل الدماء ، وفي المنافرات والمناظرات بالأحساب والأنساب والمناقب والمآثر والدعوة إلى الحرب وسفك الدماء ، وفي مناسبتهم الاجتماعية المختلفة كالزواج والإصهار .

وقد اتخذوا من الأسواق والمحافل العظام ومن مضارب خيامهم ووفادتهم على الملوك والأمراء ميادين لإظهار براعتهم وتفننهم في المقال ونسج الكلام .

ومع أن العرب أمة أمية ، ولم تكن أمة كاتبة حتى تعبر عما تريد بالقلم ، وتودع مكنون صدورهم صفحات الكتب - إلا أنهم كانوا يدركون قيمة اللفظ ، ووزن العبارة ، فالكلمة البليغة تقيمهم ، والعبارة الرقيقة تقدهم ، كما أن البيت في الشعر يرفع شأن قبيلة ، ويحط من قدر أخرى ، حيث كان للكلمة الرائعة أثر بالغ في نفوسهم فهي تفعل في النفوس فعل السحر .

- ومعلوم أن الخطابة إنما تقوى وتزدهر وتنهض وتنشط في ظلال الحرية وكنفها حيث تستطيع الناس عامة والخطباء خاصة أن يعبروا عن آمالهم ومشاعرهم وأفكارهم ، ففي ظلال الحرية تتقارع الآراء وتتصارع الأفكار ، وتتنازع المبادئ ، وتتنافس المذاهب وتتعدد الخصومات ، وفي ذلك كله الغذاء للخطابة والمداد لها والداعي إليها والجاهليون لم يكن ينقصهم شيء من الحرية فقد كان إقليمهم طليقا ، كل شيء فيه يحيا حراً على الفطرة ، فعاشوا ككل من حولهم ، لا يقيدهم قيد ، ولا يدينون لحاكم ، ولا يخضعون لقانون .

وكان مما أعانهم على الخطابة وأسعفهم عليها ، ملكاتهم البيانية ، وما فطروا عليه من خلاصة ولسن وبيان وفصاحة وحضور بديهة ، وفي ذلك يقول الجاحظ : (وكل شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال ، وكأنه إلهام ، وليست هناك معاناة ولا مكابدة ولا إجمالة فكرة ، ولا استعانة وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام ، وإلى رجز يوم الخصام ، أو حين يمتح على رأس بئر ، أو يحدو ببيعر أو عند المقارعة أو المناقلة أو عند الصراع أو في حرب ، فما هو إلا أن يصرف وهمه إلى جملة المذهب وإلى العمود الذي إليه يقصد فتأتيه المعاني إرسالاً " أفواجا " وتتثال عليه الألفاظ انثيالاً وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر وهم عليه اقدر وله أقهر ، وكل واحد في نفسه أنطق ومكانه من البيان أرفع ، وخطباؤهم للكلم

أوجد ، والكلام عليهم أسهل وهو عليهم أيسر من غير تكلف ولا قصد ولا تحفظ ولا طلب (١) .

وهناك دلائل مختلفة تدل على أن منزلة الخطيب في الجاهلية كانت فوق منزلة الشاعر ، يروى عن أبي عمرو بن العلاء أنه قال : (وكان الشاعر في الجاهلية يقدم على الخطيب لفرط حاجتهم إلى الشعر الذي يقيد عليهم مآثرهم ، ويفخم شأنهم ويهول على عدوهم ومن غزاهم ، ويهيب من فرسانهم ، ويخوف من كثرة عددهم ، ويهابهم شاعر غيرهم فيراقب شاعرهم ، فلما كثر الشعر والشعراء ، واتخذوا الشعر مكسبة ، ورحلوا إلى السوق ، وتسرعوا إلى أعراض الناس صار الخطيب عندهم فوق الشاعر) (٢) .

- وقد اتسعت في هذا العصر وظيفة الخطيب إذا كان يفاخر وينافر عن قومه فيشترك بذلك مع الشاعر ، كما كان يشترك معه في الحض على القتال ، ثم ينفرد بمواقف خاصة كالوفادة على الملوك ، والنصح والإرشاد ، وخطبهم في الإملاك والزواج مشهورة ، ومن أهم المواقف التي كان يتفرد بها الخطيب : (أنه كان يدعو إلى السلم وأن تضع الحرب بين القبائل والمتخاصمين أوزارها ، أما الشاعر فلم يكن يدعو إلا إلى الأخذ بالثأر وإشعال نار الحرب) (٣) .

(١) البيان والتبيين / ج ٣ ص ١٨ دار المعارف - بيروت

(٢) السابق ج ١ ص ١٦٦

(٣) الفن ومذاهبه في النثر العربي / شوقي ضيف ص ٢٩ - ط ١١ دار المعارف

ولعل ذلك هو ما جعل ربيعة بن مقروم الضبي يقول :

ومتى تقم عند اجتماع عشيرة خطباؤنا بين العشيرة يفصل

- وقد تحدث الشعراء كثيراً عن الخطباء ومكانتهم بين قومهم،

ومنزلتهم الرفيعة التي تبؤوها ومن ذلك قول عامر المحاربي :

أولئك قومي إن يلد ببيوتهم أخو حدث يوماً فلن يتهضمنا

وكم فيهم من سيد ذي مهابة يهاب إذا ما راند الحرب أضرمنا

وهم يدعون القول في كل موطن بكل خطيب يترك القوم كظما

يقوم فلا يعيا الكلام خطيبنا إذا الكرب أنسى الجبس أن يتكلما^(١)

ولأن الخطابة تعتمد على اللسان ، وسرعة البيان فقد مجد العرب

الخطابة المرتجلة التي يلقيها صاحبها مناسبة للمقام الذي يجد

الخطيب نفسه فيه ، على عكس الكاتب البليغ صاحب القلم ، إذ هو

في فسحة من الوقت ، يستطيع أن يغير ويبدل ، ويضيف ويحذف ،

أما الخطيب البليغ صاحب اللسان ، فعليه أن يأتي في الوقت القصير

من ترتيب الكلمات واختيار أسهلها وأعذبها وما يكون بينها وبين

غيرها من الكلمات من مشاكلة ومزاوجة وغير ذلك ، ما يحتاج إلى

وقت طويل وتفكير عميق .

وقد سأل أبو حيان التوحيدي أبا علي بن مسكوية في أمر بلاغة

اللسان وبلاغة القلم ، وكون الأولى أعسر من الثانية ، قال : لم

(١) الجبس : اللزيم المنقطع .

صارت بلاغة اللسان أعسر من بلاغة القلم ، وما القلم واللسان إلا
ألسان ، وما مستقاهما إلا واحد ، والذي يدلّك على قلة بلاغة اللسان
إكبار الناس البليغ باللسان ، أكثر من إكبارهم البليغ بالقلم .
فأجابه أبو علي : ذلك لأن البلاغة التي تكون بالقلم تكون مع روية
وفكرة ، وزمان متسع للانتقاء والتخير ، والضرب والإلحاق ،
وإجالة الروية لإبدال الكلمة بالكلمة فأما البليغ باللسان فهو
حاضر الذهن ، سريع حركة اللسان بالألفاظ التي لا يقتصر فيها أن
يبلغ ما في نفسه من المعنى حتى تتفرع له قطعة من ذلك الزمان
السريع إلى توشيح عبارته وترتيبها باختيار الاعذاب فالاعذاب ،
وطلب المشاكلة والموازنة ، والسجع ، وكثير ما يحتاج في مثله إلى
الزمان الكثير ، والفكر الطويل .

أسلوب الخطابة في الجاهلية

أما أسلوب الخطابة في الجاهلية ، فكان رائع اللفظ خلاب العبارة ،
واضح المنهج قصير السجع ، كثير الأمثال ، وذلك لأن خطباء
الجاهلية كانوا ينتقون الألفاظ ويتحIRON المعاني ، فجاءت ألفاظهم
غاية في الرقة والعذوبة والمعاني رائعة مألوفة .

يقول الزيات : (وقد امتازت الخطابة في الجاهلية بجريانها مع
الطبع ، فليس فيها تكلف ولا زخرف ولا غلو ، لحمتها الخيال ،
وسداها البلاغة ، تسير مع أخلاق البدوي وبيئته ، فهو قوى اللفظ ،

متين التركيب قصير الجملة ، موجز الأسلوب ، قريب الإشارة ، قليل الاستعارة ، سطحي الفكرة ، وربما تساوقت فيه الحكم واطربت الأمثال من غير مناسبة قوية ولا صلة متينة (١)

- وكانت خطبهم معروفة بالطول والقصر ، بيد أنهم كانوا إلى قصارها أميل لتكون أعلق بالصدر ، وأذيع بين الناس ، حيث أنهم كانوا يتناقلونها مشافهة ويروونها كالشعر .

وكان للخطب عندهم أسماء خاصة كالعجوز والعذراء والشوهاء .

يقول الدكتور / شوقي ضيف : (من الصفات التي تميز عرب الجاهلية أنهم كانوا يحبون البيان والطلاقة والتحجير والبلاغة ، ودفعهم ذلك إلى الاحتفال بخطاباتهم احتفالاً شديداً لا من حيث الصقل وتجويد الألفاظ فحسب ، بل أيضاً من حيث مخارج الكلام ، ولعلمهم من أجل ذلك كانوا يتزيدون في جهازة الأصوات ، كما كانوا ينتحلون سعة الأشداق وهدل الشفاه) (٢)

- وكان للخطباء في الجاهلية عادات يلتزمون بها ، ومن عاداتهم فيها:

١- الوقوف على نشر من الأرض " مكان عالي من الأرض " .

٢- القيام على ظهر دابة .

(١) تاريخ الأدب العربي ص ١٩٠ - بتصرف

(٢) الفن ومذاهبه في النثر العربي ص ٣٣

٣- طي العمائم على رؤوسهم .

٤- الإشارة في أثناء خطابتهم بالعصي والرماح والقضبان والقسي .

- كما كان العرب يمدحون في الخطيب جهارة صوته وشدته ، وحسن الشارة وسلامة المنطق ، ويعيبون ضيقه ودقته ، والارتعاش والرعدة ، أو الحصر والعي وكانوا يستحسنون فيه رباطة الجأش وقلة اللحظ وتخير الألفاظ .

ومن خطباء العرب في الجاهلية : أبو طالب بن عبد المطلب ، وعتبة بن ربيعة (خطيب قريش يوم بدر) وسهيل بن عمرو ، وقس بن ساعدة الإيادي ، وأكثم بن صيفي ، ونفيل بن عبد العزى (جد عمر بن الخطاب) ، وقيس بن عاصم ، وعطارد بن صاحب زرارة .

نموذج

خطبة عبد المطلب بن هاشم يهنئ سيف بن ذي يزن باسترداد ملكه
من الحبشة

لما ظفر سيف بن ذي يزن بالحبشة ، أنته وفود العرب وأشرفها
وشعرأؤها تهنئة وتمدحه ، ومنهم وفد قريش وفيهم عبد المطلب
بن هاشم فأستأذنه في الكلام فأذن له فقال :

(إن الله - أيها الملك - أحلك محلاً رفيعاً ، صعباً منيعاً ، باذخاً
شامخاً ، وأنبئك منبتاً طابت أرومته ، وعزت جرثومته ، وثبت
أصله ، وبسقى فرعه ، في أكرم معدن وأطيب موطن .

فأنت - أبيت اللعن رأس العرب وربيعها الذي به تخصب ، وملكها
الذي به تنقاد ، وعمودها الذي عليه العماد ، ومعقلها الذي إليه
يلجأ العباد ، سلفك خير سلف ، وأنت لنا بعدهم خير خلف ، ولن
يهلك من أنت خلفه ، ولن يخمل من أنت سلاله .

نحن - أيها الملك - أهل حرم الله ووذمته ، وسدنة بيته ،
أشخصنا إليك الذي أبهجك بكشف الكرب الذي فدحنا ، فنحن وفد
التهنئة لا وفد المرزئة) (١)

والخطبة مبنية على السجع ، وهو ظاهر لتلك الخطابة فإن من يرجع
إلى ما روى منها في كتب الأدب أو التاريخ يلاحظ أن أغلب ما

(١) جمهرة خطب العرب / أحمد زكي صفوت ج ١ ص ٧٦ - المكتبة العلمية ببيروت

روى من خطب القوم روى مسجوعاً وهي مع ذلك قصيرة الجمل ،
واضحة المعنى لما فيها من تقابل الأضداد ، بدأها بما يستهل به
الكلام في مثل هذه المواقف ، من تهنئة الملك ومدحه والثناء عليه
والدعاء له ، كما تحس فيها عزة العربي وإيائه ، الذي يترفع عن
العتاء ويسند النصر إلى واهبه وهو الله عز وجل .

﴿ نموذج آخر ﴾

خطب قس بن ساعدة الأيادي خطبة مسجوعة وكان فيها واعظاً
متأملاً ، تحس في كلامه خبرة المجرب وحكمة العقلاء ، وتؤدة
النابيهين فقال :

(أيها الناس : اسمعوا وعوا : من عاش مات ، ومن مات فات ،
وكل ما هو آت آت ، آيات محكمات ، مطر ونبات ، وآباء وأمهات
وزاهب وآت ، ضوء وظلام ، وبر وآثام ، لباس ومركب ، ومطعم
ومشرب ، ونجوم تمور ، وبحور لا تغور ، وسقف مرفوع ، ومهاد
موضوع ، وليل داج ، وسماء ذات أبراج ، مالي أرى الناس يموتون
ولا يرجعون ، أرضوا فأقاموا ؟! أم حبسوا فناموا ؟!)^(١)

من هذه النماذج يتضح أن الخطابة الجاهلية اختلفت بـ :

- ١- الاعتماد على السجع كنوع من الموسيقى ليسهل حفظها .
- ٢- الاعتماد على الحكم والأمثال .

(١) الفن ومذاهبه في النثر العربي ص: ٣٤-

٣- قلة الترابط بين أجزائها .

٤- قصر فقراتها , واعتمادها على الصدق واستمدادها من البيئة .

٥- كما يغلب عليها الإيجاز , والخلو من اللحن , وكثرة الانتقال بين أفكارها .

كما أن الخطابة العربية في العصر الجاهلي فقدت عنصر الوحدة الموضوعية ، وهذه الخصائص والمميزات لم تكن شيئاً خاصاً بهذا الخطيب أو ذاك وإنما كانت شيئاً عاماً ، وقاسماً مشتركاً بين الخطباء جميعهم .

سجع الكهان

سادت في الجاهلية بعض المعتقدات وكان منها (الكهانة) وتعني الإخبار بالأمور المستقبلية ، أو التنبؤ بعلم الغيب ، وكانت عند العرب في العصر الجاهلي طائفة تدعي وتزعم أنها تتطلع علي المغيبات ، وتعرف ما تأتي به ألواح الغد ، وأنها تتطرق عن آلهتهم بما سخر لها من الجن التي تسترق لها السمع ، وكانت هذه الطائفة تسمى الكهان ، وواحدهم يسمى كاهن ، أما تابعه من الجن فكان يسمى " رثيا " وكانت العرب يستشيرون الكهان في الأمور العظيمة كإعلان الحرب ، أو قتل رجل ، أو وفاء زوجة ، أو قعود عن نصره أحلاف إلخ .

وقد ساعد علي انتشار هذه الخرافات أن العرب كانوا أميين وساعدت بينتهم علي ذلك أيضاً ، فقد كانوا يتصورون الغول والجن ، وكان الكهنة يتمتعون بنفوذ واسع ومنزلة كبيرة قد يصل هذا النفوذ إلي أكثر من قبيلة أو مجموعة من القبائل فيسيطر عليها سيطرة كاملة .

وأغلب هؤلاء الكهان من اليمن ومن أشهرهم " سطيح الذئبي ، وشق بن مصعب الأنماري " وقد نالوا من الشهرة ما جعل الناس يحيطونهما بهالة من الأخبار التي تضعهما في عالم من الخيال الغريب .

فكانوا يقولون إن سطيحاً لم يكن له عظم سوى جمجمته ، وكانت ملصقة في صدره ، فليس له عنق ، وهو أهدب .

أما شق فهو نصف إنسان بعين واحدة يد واحدة ورجل واحدة ومما يقال إنه كان لهؤلاء الكهان أقوال وخطابة كلها كانت تلتزم السجع ، ومن ذلك ما روي من أخبار بني أسد أن حجراً أبا امرئ القيس رق لهم ، فبعث في أثرهم فأقبلوا حتي إذا كانوا علي مسيرة يوم من تهامة تكهن كاهنهم وهو (عوف بن ربيعة) فقال لبني أسد : " يا عبادي ! فقالوا لبيك ربنا ، قال : من الملك الأصهب ، الغلاب غير المغلب ، في الإبل كأنها الربرب^(١) لا يعلق رأسه الصحب ، هذا دمه ينثعب^(٢) وهو غداً أول من يسلب ، قالوا : ومن هو يا ربنا ؟ قال : لولا أن تجيش نفس جياشة لأخبرتكم أنه حجر ضاحية . فركبوا كل صعب ونلوا فما أشرق لهم النهار حتي أتوا علي عسكر حجر فهجموا علي قبته وقتلوه .

ومن ذلك أيضاً ما ورد في الجزء التاسع من " الأغاني " من خبر هند بنت عتبة زوج أبي سفيان ، وكانت في الجاهلية زوجة الفاكة بن المغيرة المخزومي وكان بيت زوجها يرده كثير من الناس ، وذات يوم اطلع عليها وزوجها وهي نائمة ، وقد خرج من عندها رجل ،

(١) الربرب : القطيع من الطباء .

(٢) ينثعب : يسيل

فساورته الشكوك في زوجته ، وأرسلها لأبيها الذي خرج بها إلى الكهان ليستطلع أمرها واصطحب معه نسوة من قومها وكان معه الفاكهة في بعض رجال من قومه فلما قاربوا ديار الكاهن رأى عتبه من ابنته انكساراً وتغيراً ، فقال لها يا بنية : لا تكتميني من أمرك شيئاً ، فإن كان بك من ريبة نرجع ولا بأس عليك فقالت هند : لا والله يا أبت ما ذاك لريبة ولا لفاحشة ولكنكم تقدمون على بشر يخطئ ويصيب وأخشى أن يسمني بسمة تبقى علي وصمة عار آخر الدهر ، قال : سأسلوه لك .^(١) ثم خبا خبيئاً ، وأقبلوا حتى أتوا الكاهن فأخبرهم بخبيئهم . ثم جعل يتصفح النسوة واحدة واحدة حتى أقبل على هند وقال لها: انهضي غير رسحاء^(٢) ولا زانية ، وستلدين ملكاً اسمه معاوية .

ولعنا نرى اليوم مثل هذا السجع عند من يدعين معرفة الغيب والحظ في ضرب الرمل والودع والفنجان والطاقع وأمثالهن .

(١) سأسلوه : سأختبره

(٢) رسحاء : قبيحة

الوصايا والنصائح

الوصايا : لون نثري قريب من الخطابة إلا أنها أضيق حدوداً ، وأقل مساحة منها ، فهي لا تقدم إلا لمن يهتم الموصي بأمرهم كالأب لابنه والأم لابنتها أو شيخ لعشيرته ، وما شابه ذلك .

ويعتمد المقدم للوصية علي خبرة طويلة هي محصلة مجموعة من التجارب التي خاضها في حياته يقدمها لمن يوصيه حتي ينهل ويسترشد بما فيها ، وهذه الوصايا غالباً ما تسدى في أوقات السفر والزواج ، والإحساس بدنو الأجل .

ويعتمد الموصي علي البلاغة والسجع وقصر الجمل ، والاعتماد علي ذكر الشئ ونتائجه ، بمعنى أن يقدم نصائحه ووصاياها ويبين أثرها في صيغة الإنسان .

ومن الأمثلة علي ذلك وصية ذي الأصبع العدواني لابنه التي يقول في بدايتها :

أي بني إن أباك قد فني وهو حي ، وعاش حتي سئم العيش وإني أوصيك بما إن حفظته بلغت في قومك ما بلغته فاحفظ عني :

ألن جانبك لقومك يحبوك ، وتواضع لهم يرفعوك ... إلخ وفيها يوصيه بالتمسك بالخلال الحميدة التي ترفعه في أعين الناس حتي يبلغ أرقى المناصب وكما تري فيها صدق العاطفة وبعد النظر والتأني في أفكارها وترتيبها ووضوحها.

ومن أشهر الوصايا وصية أمامة بنت الحارث لابنتها أم إياس بنت عوف بن محم الشيباني عند زواجها، ولما حان وقت زفافها علي الحارث بن عمرو ملك كندة زودتها أمها بتلك الوصايا التي تساعدنا علي أن تكون زوجة ناجحة ناضجة ، وربة بيت أمينة ، ونواة أسرة قوية فقالت لها : أي بنية إن الوصية لو تركت لفضل أدب تركت لذلك منك ولكنها تذكرة للغافل ومعونة للعاقل ولو أن امرأة استغنت عن الزواج - لغني أبويها أو شدة حاجتهما - كنت أغني الناس عنه ولكن النساء للرجال خلقن ولهن خلق الرجال . أي بنية إنك فارقت الجو الذي منه خرجت ، وخلفت العش الذي فيه درجت ، إلي وكر لم تعرفيه وقرين لم تألفيه ، فأصبح بملكه عليك رقيباً ومليكاً فكوني له أمه يكن لك عبداً واحفظي له خصالاً عشرا يكن لك ذخرا :-

أما الأولى والثانية : فالخشوع له بالقناعة وحسن السمع له والطاعة وأما الثالثة والرابعة : فالتفقد لمواضع عينية وأنفه ، فلا تقع عينه منك علي قبيح ولا يشم منك إلا أطيب ريح .

وأما الخامسة والسادسة : فالتفقد في وقت منامه وطعامه فإن تواتر الجوع ملهبة ، وتنغيص النوم مغضبة .

وأما السابعة والثامنة : فالاحتراس لماله والإرعاء علي حشمة وعياله وملاك الأمر في المال التقدير وفي العيال حسن التدبير .

وأما التاسعة والعاشره : فلا تعصي له أمراً ولا تقشي له سراً فإنك إن خالفت أمره أو غرت صدره ، وإن أفسيت سبره لم تأمني غدره ، ثم إياك والفرح بين يديه إن كان مهتماً ، والكتابة بين يديه إذا كان فرحاً .

ولعلك تري ما تحمله تلك الوصية من حكمة وبراعة في التعبير وتحليل لنفسية الرجل من هذه المرأة العاقلة ، ولعلك انتبهت أيضاً إلي ما في الوصية من استعارات وأساليب مختلفة تطلبها الموقف وكذلك المحسنات البديعية في السجع ، والمزاوجة ، والوضوح في الألفاظ وقصر الجمل والإطناب بال تكرار والإقناع المبني علي الترتيب في الوصية .

المفاخرات والمنافرات

المفاخرة : هي مفاخر القوم بعضهم على بعض بما ينسبونه لأنفسهم من ذكر الحسب والنسب .

أما المنافرة : فهي أن يفتخر الرجلان كل منهما على صاحبه ثم يحكمان رجلاً يفصل بينهما ، وسميت منافرة لأن كل منهما كان يسأل الحكم : أينا أعز نفرا .

ومن هذا اللون الأدبي ما كان بين عامر بن الطفيل العامري وعلقمة بن علاثة العامري ، فقد وقف لبعضهما يتفاخران ، وكان مما قاله عامر :

والله لا أنا أشرف منك حسباً ، وأثبت نسباً وأطول سبباً ، وقال
علقمة : أنا فرك وإني لمذر وإني لعاقز ، وإني لوفي وإني لغادر ،
وقال عامر : أنا فرك وإني أنشر منك أمة وأطول قمة وأبعد همة
.... وامتد الأمر بينهما حتي احتكما إلى هرم بن قحطبة الفزاري ،
فطرق الناس خوف الفتنة ثم جعل يمهد في التسوية بينهما فأخذ
يخوف كل واحد من صاحبه واستدعاهما بعد ذلك في جمع من الناس
وقال : لقد تحاكما عما عندي ، وأنتما كركبتي البعير تقعان على
الأرض معاً وتقومان معاً فرضياً بقوله وانصرفا .

ولعل هذا الفن كان بذرة لما ظهر في العصر الأموي من غرض شعري تسمى بـ " النقائق " وقد ظهرت بوضوح وكثرة واشتهر منها ما كان بين جرير والفرزدق .

الأمثال والحكم

نطق العرب في الجاهلية بالحكمة والمثل في أشعارهم وفي نثرهم ، بل وفي أقوالهم العادية ، وانتشرت هذه الحكم والأمثال حتى عني بها وبدراستها علماء العصر العباسي ، وممن سبق إلي ذلك المفضل الضبي وأبو عبيدة ، ثم خلف من بعدهما مجموعة من العلماء أشهرهم : أبو هلال العسكري في كتابه " جمهرة الأمثال " والميداني في كتابه " مجمع الأمثال " .

والحكمة : قول موجز اللفظ يتضمن حكماً صحيحاً مسلماً به ورد علي لسان رجل ذي تجربة وخبرة .

والمثل : قول محكم يدور علي الألسنة ، أو هو قول موجز يشبه مضربه بمورده .

والحكمة والمثل كلاهما يشتركان في الإيجاز والدقة وقوة العبارة ، ووضوح الفكرة ، وروعة الصياغة ، وكلاهما سيق في المناسبات المختلفة فانتشرا وحفظهما العرب ، لقيمتها وفائدتهما ؛ ولأنهما يتفقان مع حياتهم ونظرتهم فيما حولهم .

ومن الحكم : رب عجلة تهب ريثا ، ومنها : آخر الدواء الكي

ومنها : خير الغني القناعة ، وكذلك : أول الحزم المشورة ، ومنها : العتاب قبل العقاب ، وكذلك : رب أكلة منعت أكلات .

- ويختلف المثل عن الحكمة ، فهو يشير إلي حادثة معينة ضرب المثل فيها لأول مرة ، وتسمى " مورد المثل " ثم يستعمل فيما جاء بعد ذلك من أحداث تشبه الحادثة الأولى ، وتسمى الحادثة الجديدة " مضرب المثل " .

ومعروف أن الأمثال لا تغير ، بل تجري كما جاءت علي الألسنة ، وتبقي ثابتة مدي الزمان ، وإن خالفت قواعد النحو والصرف فقد جاء في أمثالهم : مجبر أخاك لا بطل ، والقياس النحوي مجبر أخوك لا بطل لأن اسم المفعول " مجبر " يرفع ما بعده " نائب فاعل " فقياس أخاك أن تكون أخوك ، بيد أنها لم تغير .

ومن أمثالهم أيضا " أعط القوس باريها " بسكون الياء في باريها والأصل فتحها ، وجاء في أمثالهم أيضا : أجاؤها أباؤها ، جمعي جاني وباني والأصل جناتها بناتها لأن جاني تجمع علي جناة ، وباني تجمع علي بناة .

- وكذلك لا تتغير صيغة المثل إذا خوطب به المفرد أو المثني أو الجمع ، المذكر أو المؤنث بل تقال بصيغة واحدة للجميع ، وذلك لأن العرب يستجيزون في الأمثال ما لا يستجيزون في غيرها من سائر الكلام .

ومن ذلك قولهم : قطعت جهيزة قول كل خطيب ، فيقال المثل للمذكر والمؤنث والاثتان والجمع بلفظ واحد .

- ومن أمثالهم :

الصيف ضيعت اللبن ، ويضرب لمن يطلب الشيء بعد فوات الأوان
وقولهم : لا تعدم الحسنة ذاماً وقولهم : قبل الرماء تملأ الكنائن
وقولهم : أسمع جعجعة ولا أرى طحناً ، ويضرب لمن يقول ولا
يفعل وقولهم : تجوع الحررة ولا تأكل بثديها .

وهذه الأمثال من ناحية المورد تنقسم إلى قسمين :

(١) ما كان مورده حادثة حقيقية

ومن ذلك قولهم : (يداك وكتا وفوك نفخ) ويضرب المثل لمن
يرتكب الذنب ويتحمل عاقبته ، وأصل المثل أن قوماً أرادوا عبور
خليج ، فجعلوا ينفخون الأوعية الجلدية حتى يستطيعوا العبور عليها
إلا أن رجلاً منهم لم ينفخ وعاءه نفخاً كاملاً ولم يربطه ربطاً محكماً
فلما أخذوا في العبور وتوسط الشخص الماء أخذ الهواء في الخروج
من الوعاء ، وقارب الرجل من الغرق فنادي من أصحابه يا فلان ،
إني ساموت ، فقال له وما ذنبي يداك وكتا وفوك نفخ .

- ومنه أيضاً " قطعت جهيزة قول كل خطيب ، ومورد هذا المثل أن
قبيلتين تشاجرتا ، وقتل من إحداهما شخص ، وحاولت القبائل
المجاورة الإسراع إلى الصلح حسماً للخلاف ، ودفع الدية ، وبينما
هم يخطبون مطالبين أهل القتل بالرضا بالدية إذ دخلت عليهم جارية
تدعي جهيزة فأخبرت المجتمعين أن أهل القتل قد أخذوا بثأرهم من

القاتل . فسكت الخطباء ، فقال قائل " قطعت جهيزة قول كل خطيب " ويضرب المثل لمن يأتي بالقول الفصل في القضية عند اختلاف الآراء .

- ومنه أيضا " جزاء سنمار " وأصله أن سنماراً رجل رومي بني للنعمان بن امرئ القيس قصر الخورنق بالكوفة فلما بناه وأحسن بناءه ألقاه النعمان من أعلاه فخر ميتاً وذلك حتى لا يبني لأحد مثله ، فقبل جزاء سنمار ، ويضرب المثل لمن يقدم الإساءة لمن أحسن إليه.

ومنه أيضا : أخلف من عرقوب ، وما يوم حليلة بسر ، وأبخل من مادر ، وإن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهراً أبقى الخ
(٢) ما كان مورده هادئة فرضية " لم تحدث " في الحقيقة .

ومنها : كيف أعاودك وهذا أثر فأسك ، وأصل هذا المثل علي ما حكته العرب ، أن أخوين أجدبت بلادهما ، وكان بالقرب منهما واد خصب فيه حية تحميه ، فهبط أحدهما الوادي مخالفاً نصيحة أخيه ، فرعي فيه زمنا ثم نهشته الحية فقتله ، فجاء أخوه إلي الوادي يطلب ثأره فقالت له الحية : هل لك في الصلح ؟ وأدعك في هذا الوادي وأعطيك كل يوم ديناراً ما بقيت ، فحلف لها ألا يؤذيها إذا ظلت وفيه بما قالت ، فلما حسن حاله تذكر أخاه فأخذ فأساً ثم تبعها وضربها فأخطأهما ، وأثرت الفأس في جرحها فقطعت عنه الدينار ، فخاف

شرها ونسدم فقال لها : هل لك أن نتوائق ونعود كما كنا ؟ قالت : كيف أعاودك وهذا أثر فأسك ، ويضرب المثل لمن لا يفى بالعهد . وقد أكثر العرب من صنع الأمثال وضربها في جميع أحداثهم وشئون حياتهم ، وكثيراً ما كانوا يسوقونها في خطاباتهم . يقول الجاحظ : (كان الرجل من العرب يقف الموقف فيرسل عدة أمثال سائرة ، ولم يكن الناس جميعاً ليتمثلوا بها إلا لما فيها من المرفق والانتفاع) فقد أودعوها تجاربهم ، فاتسمت بالقبول وشاعت بالتداول .

ومن هذه الأمثال نقف على ما يلي :

أولاً : تعبر الأمثال عن خلق عربي أو ترشد إلي سلوك معين أو تشير إلي أشخاص صاروا قماً في بعض الصفات ، ومنها ما يدل على قوة الملاحظة ، وكل هذه المقالات ترتبط بالبيئة ، وتعبر عنها تعبيراً صادقاً خالياً من التصنع .

ثانياً : تمتاز الأمثال بدقتها ووضوح معناها وإيجاز لفظها ، وروعة تشبيهاً فضلاً عن كونها مع مضربها استعارة تمثيلية حيث يستعار المثل من مورده لمضربه .

الراجع

م	المرجع	المؤلف
١-	الاشتقاق	ابن دريد
.	.	"تحقيق عبدالسلام هارون"
٢-	الأدب الجاهلي	طه حسين
٣-	الأدب العربي وتاريخه في العصر الجاهلي .	محمد هاشم عطية
٤-	الأغاني	أبو فرج الأصفهاني
٥-	البيان والتبيين	الجاحظ
٦-	تاريخ الأدب العربي " العصر الجاهلي "	شوقي ضيف
٧-	تاريخ الأدب العربي	أحمد حسن الزيات
٨-	جمهرة خطب العرب	أحمد زكي صفوت
٩-	الحيوان	الجاحظ
١٠-	دائرة المعارف الإسلامية	
١١-	دراسات في عصري الريادة	محمد العربي
١٢-	ديوان زهير	الهيئة العامة للكتاب
١٣-	شرح المعلقات السبع	أبو عبد الله الحسين
		ابن أحمد الزوزني
١٤-	الشعر والشعراء	ابن قتيبة
		"تحقيق أحمد شاکر"
١٥-	الصاحبي في فقه اللغة.....	أحمد بن فارس

- ١٦- طبقات فحول الشعراء ابن سلام الجمحي
- ١٧- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ابن رشيق القيرواني
- ١٨- الفن ومذاهبه في النثر العربي شوقي ضيف
- ١٩- لسان العرب جمال الدين بن منظور
- ٢٠- المزهرة السيوطي
- ٢١- الوساطة بين المتنبي وخصومه القاضي الجرجاني
- ٢٢- الوسيط في الأدب العربي أحمد الإسكندري
ومصطفى العناني